من صحوة قومية..

إلى غفوة فيها تخبط وشطط

صبحي غندور*

المرّة الوحيدة التي شاركت فيها بأعمال "المؤتمر القومي العربي" كانت عام ١٩٩٦ في بيروت. ولم تسمح لي ظروفي بعد ذلك بتلبية الدعـوة لحضور المؤتمرات السنوية الأخرى اللاحقة. وأذكر أنّي قدّمت عدّة مداخلات في دورة عام ١٩٩٦، معظمها كان يدور حول طبيعة المؤتمر ومنهج عمله. فما لفت انتباهي أنّ بين أعضاء المؤتمر من هم في مواقع فكرية تتناقض أصلاً مع تسمية "القومي العربي"، كرؤساء أحزاب شيوعية أو "قومية سوريّة". وقد تساءلت في مداخلاتي آنذاك عن كيفية وضع الجميع في تسمية "القومي العربي" بينما لا أجد بينهم اتفاقـاً علـى فهم القومية العربية. أيضاً، كان من بين المشاركين من هم يمثّلون تيّارات سياسية إسلامية لا أعرف رؤيتها الفكرية للعلاقة الخاصّـة بيـن العروبة والإسلام، وهل هي في حال "تكفير" فكريّ لمَن ينادون بالقومية العربية؟ وقلت آنذاك، إنّ من الأفضل إطلاق تسمية "مؤتمر الحوار العربي" على هذا اللقاء، كما نفعل في تجربة "مركز الحوار العربي" حيث ينتمي المتحاورون فكرياً وسياسياً إلى تيارات عربية مختلفة إضافةً إلى تنوّعهم الديني والوطني العربي. وقلت إنّنا في تجربة "مركز الحوار العربي" نحاول عبر لقاءات وندوات أسبوعية (وليس مـرةً بالسّـنة فقـط) أن نحقـق حوارا فكرياً جاداً يخرج منه كلّ متحاور بفوائد كثيرة تتعلّق بفهم الرأي الآخر وبإيجاد قواسم مشتركة مع الآخرين في كثيرٍ من الأحيان، وبأنّ حصيلة التجربة عزّزت أيضاً فهم العلاقة المطلوبة بين عناصر العروبة والوطنية والإسلام والديمقراطية، كأسـاس لأيّـة نهضة عربية منشودة .. وتمنّيت على "المؤتمر القومي العربي" أن يجعل لقاءاته الدورية بمثابة حوار فكري بين المشاركين عوضاً عن الانغماس فقط في إعداد بياناتٍ سياسية آنيّة تصلح أن تكون حصيلة اجتماعٍ جبهويّ حزبي سياسي مؤقّت ولا تحتاج إلى هذا الكمّ من المشاركين والتكاليف والجهود.

لكـن لم أكن بالطبع معترضاً على مبدأ فكرة المؤتمر ولا على غاياته التي تستهدف الخير للأمّة ومستقبلها، بل كان الاعتراض على التسمية وعلى منهج العمل، لذلك استمرّ التواصل مع الأخوة في هيئة المؤتمر، واستمرّ تقديري الكبير لمعظم القائمين عليه ولحرصهم على خدمـة هـذه الأمّة، وإن اختلفت أنا وغيري معهم بشأن بعض الرؤى أو الأساليب أو مناهج العمل، ومن ذلك مؤخراً اختيارهم لبغداد كمكان للدورة الحادية عشرة للمؤتمر القومي العربي.

فـأن يصل "المؤتمر القومي العربي"، بعد ١٠ سنوات على وجوده، إلى قرار اللقاء في بغداد بحجّة "دعم شعب العراق ضدّ الحصار الغاشم"، لأمرٌ مستغرب من قوى وشخصيات قومية تدرك تاريخ الصحوة القومية وأسباب غفوتها الراهنة، وكذلك عوامل الضعف المستمرّة فيها.

فقـد كان من الأولى أن تكون حصيلة السنوات العشرة الماضية لتجربة "المؤتمر القومي العربي" هي تقييم وتقويم للحركات القومية العربية، لفكر هذه الحركات، ولممارساتها ونتائج أعمالها، سواء أكانت في موقع المعارضة أم الحكم.

تُرى، هل يقرأ "المؤتمر القومي العربي" التاريخ العربي الحديث قراءة صحيحة، أم أنه في غفوة تجعله يرى الأمور بالمقلوب أو كما يراها النائم: تخبط وشطط؟!.

تاريخ الصحوة القومية:

المـنطقة العربـية عاشت منذ بداية الخمسينات وحتى منتصف السبعينات من القرن العشرين – رغم الكثير من التعثر والانتكاس– صـحوةً قومية عربية لم تعرف لها مثيلاً في تاريخها الحديث. فقبل الخمسينات، وامتداداً في القرون العجاف تحت الحكم التركي ثم سيطرة دول الغرب على العرب، لم يكن للعرب حول ولا قوة تذكر.

منتصف القرن العشرين جاء ليحمل معه متغيّرات كثيرة في المنطقة العربية وفي العالم ككلّ. فالخمسينات التي كانت موقعاً زمنياً وسطياً للقرن العشرين، كانت أيضاً من خلال قيام "ثورة ٢٣ يوليو" عام ١٩٥٢، بدء انطلاق حركة قومية عربية وسطية "لا شرقية ولا غربية"، ترفض الانحياز إلى أحد قطبيّ الصراع في العالم آنذاك، وترفض الواقع الإقليمي المجزّئ للعرب كما ترفض الطروحات القومية الأوروبية العنصرية والفاشية أو أسلوب الضم العسكري، وتنطلق من أرض مصر التي هي موقع جغرافيّ وسط يربط أفريقيا العربية بآسيا العربية، وتعيش على ترابها أكبر كثافة سكّانية عربية تملك كفاءات وقدرات بشرية ضخمة قياساً بسائر الأقطار العربية الأخرى.

حرب السويس عام ١٩٥٦ ثمّ إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، وقبل ذلك إعلان تأسيس حركة عدم الانحياز ورفض سياسة الأحلاف الاستعمارية، كلّها كانت مصادر إشعال لتيار جديد قاده جمال عبد الناصر من خلال موقع مصر وثقلها القيادي، وحقّق للمرّة الأولى صحوةً قوميةً عربية تؤكّد ضرورة التحرر الوطني والإستقلال القومي والانتماء إلى أمّةٍ عربيةٍ واحدة، وتدعو إلى وحدة وطنية شعبية في كل بلد عربي، وإلى استخدام الوسائل السلمية في الدعوة للوحدة العربية، وإلى نهضةٍ عربيةٍ شاملة في الأطر كلّها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لكن هذه الصحوة القومية العربية كانت في غالبيتها "حالةً شعبية" أكثر منها "حالة فكرية" أو "تنظيمية". فالشارع العربي كان مع جمال عبد الناصر "القائد"، لكن دون "وسائل سليمة" تؤمّن الاتصال مع هذه القيادة. فأجهزة المخابرات كانت هي في معظم الأحيان "وسائل الاتصال" بدلاً من البناء التنظيمي المؤسساتي السليم لهذه الملايين العربية في بلدان المشرق والمغرب معاً ..

أيضاً، كانت الصحوة القومية قائمة على خطب ناصر وعلى بعض الكتابات القومية هنا وهناك، لكن دون حسمٍ فكري مشترك بين القوى القومية أو وضوحٍ مبدئيّ متفق عليه للأسس الفكرية لهذه الصحوة القومية. وكم كان محزناً رؤية العديد من القوى والحركات القومية وهي تتصارع حول أيّة "اشتراكية" وأيّة "قومية" وأيّة "حرّية" تتبنّى كمفاهيم فكرية أو تنتمي إليها كحركات سياسية، وكذا صراع بعض هذه القوى والحركات حول موقفها من الدين عموماً ومن الإسلام خصوصاً.. بل إنّنا لنجد بعض هذه الحركات قد حمل الفكر ونقيضه في آنٍ معاً حيث "القومي الماركسي" إلى جانب "القومي الإسلامي"، و"القومي المؤمن" إلى جانب "القومي الملحد" مع "القومي الطائفي" ... والكلّ معاً في "تيار قومي واحد"!!

أيضاً، كان في هذه "التيار القومي الواحد" من هم ضدّ أيّة خصوصيةٍ وطنية (أي الاعتراف بالكيان أو القطر الوطني القائم) مع من هم يتحدّثون عن "الدوائر المتعدّدة" للانتماء- كما شرح ذلك ناصر في كتابه "فلسفة الثورة" عن التكامل في انتماءات مصر للدوائر العربية والأفريقية والإسلامية.

ولأنّ القيادة الناصرية لمصر جاءت للحكم بواسطة انقلابٍ عسكريّ دعمه الشعب فيما بعد وحوّله إلى ثورةٍ شعبية، فإنّ الصحوة القومية ارتبطت في ذهن البعض بأسلوب "الانقلاب العسكري" وبإعلان "البلاغ رقم ١" كمؤشّرٍ لوضعٍ داخليٍّ أفضل يساهم في النهضة القومية العربية!! وكأنّ حكم العسكر أصبح مطلباً شعبياً !! فتحوّلت عدة قوى وأحزاب قومية من أولوية بناء الكوادر والقيادات والعمل وسط الناس إلى أولوية البحث عن ضباط، والعمل وسط العسكر للوصول إلى السلطة كهدفٍ نهائيّ.

ولأنّ تجربة جمال عبد الناصر في الحكم داخل مصر اعتمدت الحكم السياسي من خلال مؤسسةٍ سياسيةٍ واحدة تتعدّد فيها المنابر والتيارات الفكرية لكن لا تسمح بوجود أحزاب أخرى، فإنّ القياس على ذلك أصبح أنّ العسكر الذين يصلون إلى السلطة في بلدانٍ عربيةٍ أخرى، يقضون على الحياة السياسية التعدّدية فيها فيتحوّل الحكم في هذه البلدان من "ديمقراطيةٍ شكلية" إلى دكتاتوريةٍ فعلية !!

طبعاً هذه الأمور كلّها لم تكن بمثابة قضايا هامّة لدى الشارع العربي، فسمة المرحلة كانت "معارك التحرّر الوطني من الاحتلال والاستعمار"، وهذه المعارك لم تسمح كثيراً ب "الحديث عن الديمقراطية" خاصّةً أنّ العالم آنذاك كان قائماً على تجربتين: التجربة الرأسمالية في الغرب، وهي التي تقوم على تعدّد الأحزاب والحريات العامّة مع النظام الاقتصادي الحر، بينما التجربة "النموذجية" الثانية التي كانت

سائدة هي التجربة الشيوعية (السوفييتية أو الصينية) والتي كانت ترفض أساساً وجود حزب آخر غير الحزب الحاكم ولا تقبل بأيّ نوعٍ من الحريات العامة في المجتمع، وتقوم على الاقتصاد الاشتراكي الموجَّه والمُسيطَر عليه من قبل الدولة.

لذلك كان من الطبيعي في منطقة عربية تريد التحرّر من الغرب الرأسمالي (كحال معظم دول العالم الثالث) أن تطلب المساندة من "الشرق الشيوعي" وأن تتأثّر بمفاهيمه للحكم سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وألاّ تقبل الجمع بين التحرّر الوطني من الغرب وبين تبنّي صيغه الدستورية والاقتصادية والثقافية في أنظمتها.

إستمرار السلبيات!!

تلك مرحلة قد انتهت في مصر وفي العالم، لها ما لها وعليها وما عليها، لكنّها ما زالت قائمة في عدّة بلدانٍ عربية أخرى، إذ بالرّغم من المتغيّرات كلّها في المنطقة وفي العالم، فهي ما زالت قائمة وسط بعض الأنظمة العربية التي وصلت للحكم أصلاً بواسطة انقلابٍ عسكري، وتحت شعاراتٍ قوميةٍ هشّة، وما زالت تحكم دون أيّ تغييرٍ في أوضاعها الدستورية أو نمط حكمها العسكري القائم على حكم الحزب الواحد، ذلك النمط الرافض لأيّة مشاركةٍ شعبية في الحكم أو لتكريس الحريات العامّة في المجتمع كحدٍّ أدنى..

أيضاً، ما زالت سلبيات تلك المرحلة "حالة قائمة" في وسط بعض القوى القومية العربية والتي لم تستفد من سلبيات وتجارب الماضي بل هي تكرّس الأسباب نفسها التي أدّت إلى انحسار الصحوة القومية العربية وإلى انعزال القوى القومية بشكلٍ عام عن محيطها الشعبي العربي.

فلم تدرك بعدُ هذه القوى (لا فكراً ولا ممارسةً) أنّ القومية العربية هي حالة انتماء وليست مضموناً فكرياً وسياسياً قائماً بذاته. أي لا يكفي القول "إنني قومي عربي" لأحسم موقعي وموقفي الفكري من قضايا لها علاقة بالدين والديمقراطية وبالواقع العربيّ الراهن والصيغ الدستورية للحكم.

ولعلّ تجربة "حركة القوميين العرب" في الستينات خير مثالٍ على ذلك، حيث انقلبت هذه الحركة القومية على ذاتها عقب نكسة عام ١٩٦٧ وخرجت منها مجموعة فصائل متصارعة تبنّت بأكثريتها (رغم الصراعات فيما بين أجنحتها) الماركسية/اللينينية وخلعت "الثوب القومي" مستغلّةً ظروف هزيمة ٦٧ لإشهار ماركسيتها ورفضها الفكري للمنطلق القومي، فاختارت أسماء جديدة لا تمتّ بصلةٍ إلى الحركة القومية: "الفصائل الماركسية/اللينينية"، "منظمة العمل الشيوعي"، "حزب العمل الاشتراكي"، "الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" .. الخ

حصلت أيضاً حالة شبيهة في حزب البعث بشكلٍ عام، حيث تذبذب فكر هذا الحزب بين شعاراتٍ عامّة فارغة المضمون (راجع محاضر محادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ الصادرة عن دار "الأهرام")، إلى تبني مناهج فكرية متناقضة، بعضها عروبيّ قومي والبعض الآخر منها ماركسي علماني، لكنْ دون حسمٍ فكريٍّ واضح وفي ظلّ صراعات سياسية وحزبية داخلية أفرزت أجنحةً متكسّرة ومتصارعة في كلٍّ من العراق وسوريا ولبنان، وداخل منظماتٍ فلسطينية مسلّحة.

وكان القاسم المشترك بين العديد من هذه "القوى القومية" أنّها استغلّت ظروف هزيمة عام ١٩٦٧ لتنقضّ على قائد التيّار القومي العربي آنذاك جمال عبد الناصر، وعلى دور مصر الطليعي في المنطقة، ولتطرح نفسها بديلاً لهذا القائد، وبلدانها بديلاً لدور مصر التاريخي والجغرافي.

وكان معظم هذه القوى المتحدّرة من أصول "حركة القوميين العرب" و"حزب البعث" في حال عداءٍ علنيّ مع ناصر حتى لحظة وفاته في أيلول/سبتمبر ١٩٧٠. وكان هذا العداء لناصر ينطلق من ساحات هذه القوى التي كانت حاكمة في العراق وسوريا واليمن الجنوبي، كما كانت فاعلة في ساحات لبنان والأردن وفلسطين المحتلّة.

من الصحوة إلى الكبوة!

وفاة جمال عبد الناصر، وقبلها هزيمة عام ١٩٦٧، وقبل هذا وذاك: ضعف البناء الفكري والسياسي والتنظيمي لتيار القومية العربية مقابل قوّة دور "المخابرات" وسط هذا التيّار .. كلّها عناصر أسهمت بلا شكّ في ضعف التيّار القومي العربي نفسه لعقودٍ لاحقة، لكنّ ذلك لا يلغي مسؤولية من كانوا في مواقع الحركات السياسية القومية المُشار إليها آنفاً. والمؤسف، أنّه بعد ثلاثين عاماً من وفاة ناصر، وبعد المتغيّرات الكثيرة التي حدثت في مصر وفي المنطقة العربية وفي العالم .. ما زال بعض هذه القوى يحكم في بعض البلدان العربية !!

خلال حقبة الثلاثين سنة الماضية، تفاعلت قضايا عديدة في المنطقة والعالم، كانت بمعظمها تحمل نتائج سلبية على التيار القومي العربي فتنقله من كبوةٍ إلى كبوة إلى حين مطلع التسعينات حيث تحوّلت الكبوة إلى هزة عنيفة أدت إلى غفوة ما زال هذا التيّار مستغرقاً فيها!!

فالسلسلة التي امتدّت من هزيمة ١٩٦٧، إلى وفاة ناصر، إلى توقيع السادات لمعاهدات كامب ديفيد، إلى عزل مصر، إلى حرب لبنان، إلى الحرب العراقية/الإيرانية، إلى اجتياح لبنان عام ١٩٨٢، إلى الصراعات الحدودية المسلّحة بين بعض الدول العربية كالمغرب والجزائر .. كلّها عوامل امتزجت كسلبيّات مع انجذابٍ أو اندفاعٍ في الشارع العربي إلى ظاهرة "التيّار الإسلامي" الذي أشعلته آثار نجاح الثورة الإسلامية في إيران، إضافةً إلى التأثر بالحملات الإعلامية الكبيرة عن ظاهرة "المجاهدين الأفغان" ضدّ الشيوعية.

وكان من الطبيعي بعد قصور طروحات لحركات قومية، خاصّة في مجال تناقضها مع الإيمان الديني، ودعوتها الصارخة إلى تبنّي الطروحات العلمانية الإلحادية، والمجاهرة فكراً وسلوكاً بما يتناقض مع خصائص وسمات المضمون الحضاري الإسلامي للأمّة العربية، أن يبتعد المواطن العربي عن هذه الحركات وأن يلتجئ إلى أطرٍ سياسيةٍ وفكرية تؤكّد على دور الدين في الحياة العربية ويرى فيها أساساً صالحاً لمشروع نهضةٍ قادمة.

لكن بالطبع لم يتوفّر لمعظم هذه الحركات الإسلامية القدرات الفكرية والتنظيمية السليمة، وتوزّعت هذه الحركات ما بين الطرح التقليدي السلفي (الذي لم ينجح في الماضي ولا أراه ينجح كمشروع للمستقبل) وبين حركاتٍ عنفية شوّهت في ممارساتها الداخلية صورة الدين الإسلامي وأظهرت الاستماتة للوصول إلى السلطة فقط عوضاً عن هدف التغيير الفكري والثقافي أولاً في المجتمع.

وكما كان الطرح الفكري لمعظم الحركات القومية العربية عاجزاً عن استيعاب خصوصية العلاقة بين العروبة والإسلام، كذلك كان – ولا يزال– العديد من الحركات الإسلامية قاصراً عن فهم هذه الخصوصية وعما تتميّز به الأمّة العربية من حيث الترابط مع الإسلام في الحضارة واللغة والتاريخ والموقع الجغرافي.

لذلك، دخلت المنطقة العربية عقد التسعينات وهي في حالٍ من الارتجاج الفكري والسياسي والعسكري (على مستوى الحكومات أو المعارضات أو الشعوب)، ولم يكن الإنسان العربي بوضعٍ يرتجي فيه أملاً من حاكمٍ أو من معارض، من تيّارٍ فكري أو من آخر، بل حتى من وضعٍ دوليٍّ أو إقليمي مجاور.

في تلك الحقبة السوداء الماضية كلّها، الحافلة بالتراجعات القومية وبالصراعات داخل المنطقة العربية، كان لحكم حزب البعث في العراق باعٌ طويل في تداعياتها.

كان النظام البعثي العراقي قادراً على التفاهم مع نظام شاه إيران، وعلى توقيع اتفاقياتٍ معه عام ١٩٧٥، لكنّه لم يرضَ بإعطاء سنواتٍ قليلة للثورة الإيرانية حتى تستقرّ أوضاعها، فأطلق حكم بغداد حربه الضروس ضدّ طهران مستنزفاً بذلك طاقات وقدرات العراق وإيران ودول الخليج العربي على مدار ثمان سنواتٍ كانت كلّها لصالح الغرب وإسرائيل وضدّ مصالح العرب والعالم الإسلامي.

أيضاً، لم تمضِ فترة زمنية بسيطة على انتهاء الحرب العراقية/الإيرانية حتى قام نظام البعث في بغداد بإشعال حربٍ عربية/عربية لم تعرف المنطقة مثيلاً لها في القرن العشرين .. فكان غزو الكويت واحتلالها بالكامل وإعلانها كجزءٍ من العراق، بداية لعصر الانقسامات

والصراعات على مستوى شعوب المنطقة وليس فقط بين حكوماتها. وبسبب هذه الحرب، تتفاعل الآن مخاطر تقسيم العراق وعودة الهيمنة العسكرية الأجنبية على العراق وعلى عموم المنطقة.

وبين ليلة وضحاها، تحوّل حكم صدام حسين – بنظر بعض القوى القومية والإسلامية– من "نظام دمويّ ضدّ كلّ العراقيين القوميين والناصـريين والتقدميين والإسلاميين"، إلى "رمز الصمود أمام الهجمة الأميركية" وإلى "بطل صامد ضدّ الاستعمار"، وتحوّلت شعارات الحكم البعثي في العراق من معاداة الدين والقوى الدينية إلى وضع "الله أكبر" على العلم العراقي والمناداة بالإسلام والعروبة !!

أيُّ إنجاز حقّقه حكم البعث في العراق للإسلام أو للعروبة؟

تُرى، أيُّ إنجاز حقّقه حكم البعث في العراق للإسلام أو للعروبة على مدار اكثر من ثلاثين عاماً؟!

هل من خلال المواجهة مع عبد الناصر والتآمر عليه إو عبر الصراع المسلح المتعدد الأشكال مع سوريا ولبنان ومنظمة التحرير أم من خلال غزو الكويت وحرب الخليج الثانية! أم في مساهمة هذا الحكم بتأجيج الصراعات في العالم الإسلامي طوال عقد الثمانينات من خلال الحرب المدمّرة بين العراق وإيران، بينما كانت إسرائيل تغزو أوّل عاصمة عربية وتفتك بلبنان وسوريا وقوى منظمة التحرير الفلسطينية !!

رحـم الله تعالى جمال عبد الناصر، فقد دفعته معلومات مصدرها موسكو (أيار/مايو ١٩٦٧) عن حشودات إسرائيلية ضدّ سوريا إلى إعـلان حالة التعبئة العامّة وإغلاق مضائق تيران في سيناء، فوقع في الكمين الأميركي/الإسرائيلي وتعرّضت مصر لهزيمة عسكرية كبيرة كـان وراءهـا اسـتهتار المشـير عامـر والتركيبة الهشّة آنذاك للمؤسسة العسكرية المصرية. رغم ذلك، أعلن جمال عبد الناصر يوم ٩ حزيـران/يونيو (أقل من أربعة أيام على بدء الحرب) استقالته من المواقع الرسمية كافّة وأنّه كقائد أعلى يتحمّل المسؤولية كلّها عمّا حدث. ومـا حـدث فـي مصر لم يكن عدواناً من حكومتها على بلد عربيٍّ آخر ولا حتى على إسرائيل، بل كان عدواناً عليها من إسرائيل وأميركا و"غضّ نظر" من القطب الدوليّ الآخر... ومن أجل محاولة الدفاع عن بلد عربيٍّ آخر، سوريا.

تُـرى، لِمَ لمْ يتحمّل نظام الحكم في بغداد مسؤولياته عن كلّ الذي حدث في العراق؟ وهو الذي بادر بالعدوان على بلد عربي آخر ثم رفـضَ أيّة محاولة عربية أو دولية لمنع وقوع الحرب، وها هو الآن يرفض محاولة القمة العربية الأخيرة في عمان من أجل إنهاء الحصار وتحقيق التضامن العربي الشامل مع العراق؟.

مواجهة الحصار القائم على العراق تتطلب أولاً تعزيز الجبهة الداخلية العراقية وتعزيز المشاركة السياسية في الحكم وتثبيت عناصر الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد، فهل هذا يحدث الآن في العراق؟

مواجهة الحصار القائم على العراق تستدعي وقف الحكم العراقي لكل خلافاته مع الدول العربية وتأمين جبهة دولية واسعة داعمة له، فهل هذه الآن سياسة الحكم العراقي؟

جمال عبد الناصر حرص كردٍّ على هزيمة عام ١٩٦٧ على أن يوقف أيّة صراعات عربية/عربية وعلى أن يبني تضامناً عربياً فعالاً، فسـحب القوات المصرية من اليمن، وصالح كلّ من عاداه من العرب، ورفع شعار أولويّة المعركة مع العدوّ الصهيونيّ بينما نظام الحكم في بغـداد خـاض حـرباً عربـية/عربية، وعطّل وما زال أيّة محاولة لإنهاء آثار هذه الحرب بعد عشرة سنوات مبرّراً بذلك استمرار الهيمنة الأميركية على المنطقة والاستفراد الإسرائيلي بالمشرق وبفلسطين.

"المؤتمر القومي العربي" وغفوة التخبط والشطط!

كـان الأولـى ب "المؤتمر القومي العربي"، أن يدعم الشعب العراقي من خلال التضامن معه كشعب مظلوم من الخارج ومغبون من الداخل. ويكون التضامن مع شعب العراق بالإصرار على مطلب رفع الحصار وبتقديم المساعدات لأبناء هذا الشعب، وليس باستخدام أمواله من أجل تغطية تكاليف مؤتمرات في بغداد!.

ولا أعلم إذا احتجَّ أحدٌ من المشاركين في مؤتمر بغداد على ممارسات البذخ التي تقوم بها الحكومة العراقية على نفسها في أكثر من مجالٍ داخلي وخارجي بينما شعب العراق يعاني من الجوع والحصار. أيضاً، لا أعلم إذا أثار أحد أي احتجاج على إصدار الحكومة العراقية أحكاماً بالسجن على أحد عشر قومياً وناصرياً في بغداد والموصل قبل أيام قليلة من انعقاد "المؤتمر القومي" في بغداد!!.

واضحٌ في البيان الختامي للمؤتمر الأخير، وفي التغطية الإعلامية العراقية الرسمية للمؤتمر، أنّ هذه الدورة كانت دعماً معنوياً للحكم العراقي رغم تكاليفها المادية. ولا تصحّ طبعاً المقارنة بين أوضاع العراق وأيّ بلدٍ عربي آخر انعقد فيه المؤتمر قبل الآن، فلم تكن أيٌّ من الدول الأخرى في حال مشابهٍ لوضع العراق الآن حكومة وشعباً، ولا أيضاً على صعيد التاريخ السياسي للحكم المتصل باسم الحركات القومية، كحال حزب البعث في العراق.

إنّ رفع الحصار عن العراق هو واجب قوميّ على كلّ إنسانٍ عربيّ أن يدعمه، لكن منح النظام العراقي الآن "شهادة حسن سلوك قومي" هو أكبر من هفوة وأشبه بغفوة عن حال هذا النظام وتاريخه وممارساته بحقّ دعوة القومية العربية والقوى القومية بشكل عام.

ولا أعلم أيَّة مصداقيةٍ ستتحقّق مستقبلاً لـ"المؤتمر القومي العربي" إذا كان بيانه الختامي (الصادر عن مؤتمر بغداد) يتحدّث في مقدّمته عن "الرعاية الكريمة من السيد الرئيس صدام حسين" وعن "المساهمة الأصيلة في الدفاع عن مصالح الأمّة وكرامتها" ثمّ يتحدّث البيان عن "أنّ استهداف العراق بالحصار والعدوان هو استهداف لموقفه المبدئي من الصراع العربي الصهيوني والرافض لكلّ التسويات القائمة ولتوجّهه الوحدوي.."!! ثمّ يختم بتجديد شكر المؤتمر للعراق رئيساً وقيادةً وشعباً!!

أيُّ "توجه وحدوي" يتحدث عنه البيان الختامي؟ هل هو أسلوب الضم العسكري؟ أو هل من خلال تصفية واعتقال القوى القومية؟

بعد مضيّ أكثر من ثلاثين سنة على وفاة جمال عبد الناصر ما زالت بعض الشخصيات والقوى المشاركة في "المؤتمر القومي العربي" تلومه وتلسوم فترة حكمه (عن باطلٍ أو عن حقّ) على الكثير من القضايا الراهنة الآن، بينما تتجاهل هذه الشخصيات والقوى إنتقاد نظام الحكم في بغداد، رغم خطأ المقارنة أصلاً بين تجربة جمال عبد الناصر ونظام صدام حسين.

نظام الحكم في بغداد – كان وما يزال– مستفيداً من الحصار الدولي المفروض على العراق حيث مرجعية المآسي العراقية هي الآن الحصار فقط وليس ما فعله النظام أيضاً طوال ثلاثين سنة من حروبٍ مع المحيط الخارجي ومن ممارساتٍ قمعية في الداخل.

لقد حان الوقت أن تستيقظ أولاً بعض الحركات القومية من سباتها العميق، قبل الحديث عن الصحوة المطلوبة في الشارع العربي. فربع القرن الأخير كان حافلاً بهدير الصراعات العسكرية التي تحدث في غير مكانها الصحيح، وبأصوات العسكر الأقوياء فقط على شعوبهم، لكنّ هذه الأصوات لم توقظ بعد كلّ النائمين..

---

* مدير "مركز الحوار العربي" في واشنطن
alhewar@alhewar.com